

هدى عيد

رحلة في الصيف



رحلة في الصيف

قصة لليافعين

(16-12)

ليس بإمكانك أن تكتشف محيطاتٍ جديدةً

إلا إذا كانت لديك الجرأة

للابتعاد عن الشاطئ.

André Gide



(1)

لم أكن مهتمّاً بالميدالية المزخرفة التي علّقها مدرّب النّشاط على صدري. انصبّ كلّ اهتمامي على تلك الفتاة الشقراء الجميلة التي وقفت قبّالتي، على خشبة المسرح. بلغ عدد الفائزين الواقفين عشرة . كنت واحداً منهم. فزْتُ في مباراة السّباحة، بينما فاز آخرون في مباريات الرّكّمة ، التّنس ، والكرة الطائرة. ثلاثة فقط هم الذين فازوا عن فئة السّباحة : أنا والفتى القطريّ رائف، والفتاة الفرنسيّة لينا. عرفت اسمها من أمّها، وهي تناديها لتلتقط صوراً متنوّعة لها.

- يا إلهي، تسبح تلك الفتاة كسمكة !

أذهلتني سباحتها الرّشيقة السّريعة أنا الفائز الدائم بكل مباراة للسّباحة أخوضها، فقد وجدتها أكثر رشاقة منّي في المياه ، وأعلى سرعة ما أثار غيرتي. رأيت الفتاة وهي تعبر كالسّم، في الحوض الذي جرت فيه المباراة، وهو حوض نو مواصفات أولمبيّة كما أخبرنا المدرّب. ما إن تبدأ الشوط حتى تنتهي منه بسرعة البرق.

وهاهي تقف الآن مبتسمة بنعومة- على الرّغم من اضطرابها الذي لم أعرف له سبباً- وهي تتلقّى الميداليّة !

(2)

إنّه اليوم الثالث الذي أمضيه في هذا المكان المذهل. أجمل ما في هذا المنتجع هو هذه المباريات المتنوّعة التي نخوضها: سباحة، تنس، رقص ، غولف ، هبوط بالمظلة ، وركوب على صفحة مياه البحر الأبيض المتوسط، في منطقة فاتنة، يقع على أرضها هذا الفندق الكبير. يقوم قارب متوسّط الحجم بجرّ قاربنا المطاطيّ الصغير ، بينما يروح ذاك الأخير يعلو ويهبط ويرتطم بالمياه الكثيفة، ونحن نطلق صرخاتٍ مدويةً مجنونة تضيع في الهواء.

حين عرض عليّ والدي فكرة السّفر والإقامة في المنتجع رفضت بشدّة، فأنا كنت قد وضعت خططاً متنوّعة للعطلة الصيفيّة التي سأقضيها برفقة حامد، وجوزيف ورمزي ، ولم يكن السّفر ضمن خططنا.

اقترحْتُ أن يسافر والداي مع أخوي مُنى ووائل، على أن أبقى أنا عند جدّتي المقيمة في منطقة بكاسين؛ فأنا قد بلغت السادسة عشرة من عمري ، ويحقُّ لي التّمتع بحريّة اتّخاذ قرارتي. لكنّ أمي أصرّت بحزم: سنذهب جميعنا.

والدي المتساهل تشدّد متأثراً بإصرار والدتي، وبحديثها المطول عن أهميّة الفرحة الجماعيّة في العطل. كان لا بدّ لي من الإذعان.

(3)

صمّمت حين بتنا على متن الطائرة أن أجلس إلى النافذة البيضاويّة الصغيرة. كوّة
أشرفتُ منها على السماء التي راحت الطائرة الضخمة تخترق أجواءها.

مشهد الغيوم التي فاقتها الطائرة علوّاً بدا مذهلاً. قطع الغيم الأبيض تقاسمت
المساحة الهائلة المسماة فضاءً بهدوء وثبات، بينما انطلقت الطائرة بسرعة مصدره هديرًا
هائلاً يفسد هدوء الفضاء، لكنه لم يفسد سعادة ركوبي في الطائرة للمرة الأولى، ومنتعة رؤية
جزء ولو بسيط من الكرة الأرضيّة التي يتباهى أستاذ الجغرافيا بالحديث عنها. حين أعود
إلى لبنان، ونبدأ السنّة الدراسيّة الجديدة سأنقل إليه بعض مشاهداتي.

أختي منى غضبت كثيراً لجلوسي إلى النافذة. راحت تتأوشني بين الفينة والفينة، وما
انفكت تعلن استياءها من أنايتي المفرطة، محاولةً تحريض والدتي التي جلست على مقعد
مجاور لأبي خلفنا مباشرةً، بينما جلسنا نحن الأبناء متجاورين. بقيت على تمرّدها إلى أن
أعطيتها حاسوب، فانشغلت ببعض الألعاب الإلكترونيّة الحماسيّة، هي ووائل متيحة لي
فرصة الاستمتاع بمراقبة مشاهد السماء، والبحر والجبال الممتدة واليابسة بمساراتها المتعرجة
المذهلة، حين راحت الطائرة تحلق على علوّ منخفض.

عندما وصلنا إلى مطار دلمن علق أخي وائل:

- مطار بيروت أحلى.

علق والدي :

- هذا مجرد مطار سياحيّ ليس إلّا، في تركيا عدد من المطارات الأخرى.

لم أعبأ بالمبنى، انشغلت بمراقبة السياح الكثر الذين تدفّقوا معنا، وكنت معنياً
بملاحظة الفتیان، والفتيات الذين يماثلونني سناً، والذين أكّدت لي أمي وجودهم كي
تُغريني بالمجيء. رحت أحصي أعدادهم، وأنا أسائل نفسي :

- هل سأستلّي هنا كما أكّدت لي أمي ، وهل سيعوّض لي هؤلاء صحبة أصدقائي
الذين أحبهم، وخسارة المشاريع الكثيرة التي خلّفها ورائي، في وطني؟

رحتُ أراقب الأقدام الواقفة عند الخطوط العريضة المرسومة باللون البرتقالي ،
ليتقدّم بعد ذلك أصحابها من رجال، حسث يتمّ التأكد من سلامة جوازات السفر.
طلب والذي منّا بصوت حازم أن نبقي جميعاً إلى جواره، حتّى يتيقن من سلامة
العبور.

(4)

خرجنا من المطار.

كانت حافلات ركاب كثيرة كبيرة الحجم في انتظارنا، وقد لاحظت أن رجالاً وقفوا
متفرّقين حاملين "يافطات" كُتب عليها:
مارمريس، ليتونيا ، أنطاليا....

شرحت لي والدتي حين استفهمت عن ذلك، أن هؤلاء هم المرشدون السياحيون الذين
يتولّون قيادة المجموعات السياحية، إلى المنطقة التي اختارها أفرادها لقضاء الإجازة
فيها.

بعد حوالي السّاعتين قضيناها في الحافلة، مستمتعين بمشاهدة أشجار الصنوبر
وسواها، وصلنا إلى المكان المقصود.

بدأ صدري ينشرح، ونحن نقترّب، فالبحر الأزرق راح يتمايل من الجهة اليمنى لمسارنا، مراكب سياحيّة بيضاء اللون تتهادى فوق صفحة المياه الشفافة، وزوارق كثيرة تتلاحق أمام أعيننا، وظهرت طيورٌ بيضاءً متوسطة الأحجام محلّقة، عرفْتُ فيما بعد أنها النّوّارس، تحلّق على علو منخفض، تقترّب من بشر يركبون على متن بعض الزوارق، فيتناول واحدها من يد تمتد نحوه طعاماً أو فتات خبز، ليعاود بعد ذلك الانتظام في التّحليق ضمن سربه.

لم يكفّ أخي عن ملاحظتي بالأسئلة السّخيفة:

- خالد، انظرْ إلى تلك السفينة الكبيرة ، ياى، لماذا لا تغرق في المياه برأيك؟ هل سنركب في واحدة تشبهها حين نصل إلى هناك؟ هل ستدرّبني على السباحة؟ هل ستسمح لي أن أنام معك بالبنغلو؟ رجوتُ أمي بصبر نافذ:
- أمي، أرجوك أبعدني وائلا عني ، أريد رؤية مشاهد جديدة، لم لا يصمت هذا الصبي الغبي؟ استمرّ وائل يسائلني غير عابئ بانزعاجي:
- خالد انظر بشرفك، تفرّج على هذه المظلات الجميلات، هل علّقوها بالمقلوب يا خالد؟
- كنا نجتاز في تلك اللحظة الشارع الرئيسي لسوق مدينة "فتحية" الشهير، كما سمعت المرشدة السياحية تخبرنا، والتي لم أكن قد أصغيت إليها قبلاً، لتسارع كلامها وعدم وضوحه.
- نبّهني وائل إلى المظلات الملونة وإلى البالونات التي علّقت على امتداد الشارع الذي نجتازه، مشكلة له ما يشبه السّقيفة المضيئة الجذابة .
- نعم يا ذكي علّقوها بالمقلوب، تماماً كرأسك الذي يبدو لي طوال الوقت، مقلوباً.

نظرتُ إليَّ أُمي بعتب، لأنَّها تفترض دائماً أن أكون أكثر تفهماً وتعلّلاً من أخي، لكنها لا تدري أن كلامها كان يحفزني في كثير من الأحيان، على ضرب هذا الطفل المدلّل عندما يلحّ عليّ كثيراً، فيستنفذ صبري.

(5)

بات وائل في الفترة الأخيرة، شديد الرغبة بمرافقتي أنا وأصدقائي، لكننا كنّا نضيق به وبفضوله، لانشغالنا بكلّ التغيرات المتسارعة التي راحت تطال كلّ ما فينا: حناجرنا، ذقوننا، وشواربنا، وكل أعضاءنا.

أذكر أنّ صديقي عمّار قضى فترة يومين متغيّباً عن صفنا، لأنه وجد صوته خشناً للغاية، تصيبه بحّة مفاجئة كلّما نظر إلى صديقتنا الجديدة رغدة، أو حاول محادثتها، أو كلّما عنّ على بالها هي أن تقترب منه، طالبةً ممحاة أو قلم رصاص .

توزّعنا عند وصولنا إلى المنتجع مجموعتين: أنا ومنى ووائل في "بنغلو"، وأمي وأبي احتلّا "بنغلو" آخر.

وتسمية "البنغلو" تطلق على ما يشبه الكوخ العصريّ الحديث ، وهو مجهّز أفضل تجهيز لاستقبال السيّاح لتمكينهم من الشّعور بالراحة في خلال مدة إقامتهم .
تركنا وائل، ونحن نفتح حقائبنا الصغيرة لنوضّب ثيابنا، في الخزانة الخشبية البسيطة التّصميم، وانطلق هو إلى أُمي وأبي يسائلهما، عن أمور سخيفة تشغل باله.

غمزتُ أختي منى، فسارعت مثلي إلى تبديل ملابسها، وإلى ارتداء ثياب السباحة. من ثمّ رحنا ننزل على الدرج الطويل قفزاً، بعد أن أرسلتُ رسالةً إلكترونية سريعة إلى والدتي تخبرها عن وجهتنا.

(6)

كنت قد أجريت أنا ومنى تحريّاتنا عبر الأنترنت، ورسنا ما يشبه الخارطة الصغيرة للمكان، فعرفنا موقع البيسين الرئيسيّ، إذ لم أعد أحبّ السباحة في أحواض الصغار ، وسماع صراخهم وسخافاتهم. كانت الساعة قد بلغت الواحدة تقريباً، وأشعة الشمس حارقة ، والهواء ساخنٌ تماماً، ما ضاعف من حماستنا، ومن رغبتنا للشعور بالانتعاش، في المياه الباردة المغربية.

سارعتُ ومنى إلى السقوط في المياه. إحساس عارم بالنشوة اجتاحتنا، والبرودة تحوط أجسامنا. دبّت الحيويّة فينا، فرحنا نتسابق بمتعة ما بعدها، نتخبط في جوف المياه وعلى سطحها، ونرسل أيدينا وسيقاننا باستمتاع وبحرية، وحوّلنا عددًا لا بأس به من السباحين الماهرين، الأمر الذي أشعرنى بسعادة حقيقية. كان قد مضى على وجودنا في الحوض أكثر من نصف ساعة تقريباً، عندما لمحت أُمي قادمة تمسك يد وائل بيدها، وقد بدا وجهه باكياً متممراً. لم أعبأ كثيراً، لكن أُمي ما لبثت أن اقتربت منا، وأشارت إلينا بخفّة ولكن بصرامة، فغادرنا المياه بصمت .

أُتبتنا بلطافة لأننا لم نأت بمناشف نجفف بها أجسادنا، ولأننا وهذا هو الأهم،
لم ننتظر أخاناً الصغير حتى نترافق جميعاً، إلى الحوض .
من ثمّ تلت علينا أمثولتها حول ضرورة أن نكون متفهمين منذ بداية الرحلة
إلى نهايتها، فلا داعي للشغب ولا لمحاولات التهرب من رفقة أخينا المحبب والطيب،
لأنّ محاولتنا، ستنتهي طبعاً بالفشل الذريع، كما وعدتنا.
دعنا بعد ذلك إلى تناول الغداء في المطعم القريب، من بعد أن نسوي
هندامنا في كوخنا الصغير. عدنا أدرجنا مسرعين، ونحن ننظر بغيظ وقسوة، إلى
كريم الذي كان يمدّ لسانه طويلاً لنا، بعد مغافلته لوالدتنا.

(7)

في اليوم الثاني من أيام وصولنا، شاركتُ بمباراة السباحة المنظمة التي تشرف عليها
إدارة المنتجع، وحللتُ في المرتبة الخامسة فقط، الأمر الذي أثار حفيظتي، ونبهني إلى
وجود عدد لا يُستهان به من السباحين المَهرة بين من يخوضون مباراة السباحة منا.
أختي منى لم تهتم يوماً بالفوز. كانت تحب السباحة، ولكن لم يكن يعينها
إطلاقاً المشاركة، أو الفوز بمباراة ما، بقدر ما كانت تُعنى بلون المايوه الذي
سترتيه، أو بكيفية ربط شعرها الناعم المناسب كي لا تقع خصله المبتلة، على
عينها.
لاحظت يوماً أن المتبارين ينتمون إلى جنسيات مختلفة، فقد تنوّعت
الأحاديث الدائرة بينهم قبل المباراة، وبعدها ما بين العربية، الإنكليزية، والفرنسية،
وهي اللغات التي أتقنها، وبين الروسية والألمانية والهندية، وهي لغات لا أتقنها

طبعاً، فعاودني إحساس الارتياح والسعادة لمشاركتي أهلي في هذه الرحلة التي ستكون غنيّة بتجربتها.

أحسست بما يشبه السحر عندما رأيت لنا، ولم أكن قد عرفت اسمها بعد.

مشهدا كان رقيقاً وجميلاً بلا انتهاء. ممشوقة القامة، دقيقة الملامح زرقاء العينين زرقه صافية تماثل لون بحرنا، لا بحر ليتونيا المائل إلى الخضرة عند شاطئه. ربما كثرة الأشجار الهائلة الضخامة المحيطة به. كان صوتها يصل إلى أذني ناعماً رقيقاً، بينما بدت صديقتها الفرنسيّة والملازمة لها كظلمة أقلّ نعومة، وأميل إلى الصّبية.

لم أستطع منع نفسي من التحديق إليها، ومن محاولة استراق السمع لما تقول، ما سبّب نيلي المرتبة الخامسة نهار البارحة، إذ تشتت تركيزي تماماً، وصرت معنياً بمتابعة رشاقتها بدل التركيز على صفائي الذهني الذي يضمن لي نشاطاً فعّالاً، في السباقات عادة.

(8)

من سوء حظي طبعاً تنبّه مني ووائل لما ثار في داخلي من اهتمام بالصّبية، فانصرف ذلك الولد إلى النيل مني، وإلى السخرية من انفعالي، ومن اهتمامي الطارئ بالبحث عن لنا في الليلة الفائتة، كما في انتقالنا لتناول الغداء في المطعم الكبير. كان بين الفينة والأخرى يقترب مني بجديّة، ويقول لي هامساً:

- خالد، لنا الفرنسيّة خلفنا تماماً، التفّت بهدوء كي لا تشعر بأني نبّهتك.

أسارعُ كالأبله إلى الالتفات، وقد توالى ضربات قلبي، فلا أجد لنا، بل أجد امرأة شقراء سمينة للغاية، تسير بصعوبة خلفنا، فينطلق وائل ضاحكاً مصفقاً بيديه وبساقيه، مشركاً مني معه بسخريته، الأمر الذي أغضبني للغاية.

وقد تكرر مثل هذا الأمر، وأنا أحمل طبق الطعام إلى مائدتي، من بعد أن ملأته بأصناف المأكولات الشهية، فإذا بوائل يسير خلفي حاملاً طبقه، قائلاً لي بلهوجة، وأنفاسه تكاد تنقطع :

- ليينا، ليينا...ليينا.

التفتُ ثانية فلم أجدها .

كدت أصفعه لشدة غيظي منه، لكن الناس حولي بالعشرات، إن لم يكونوا بالمئات :

- انتظر حتى نعود إلى البنغلو، وأنا سأعرف كيف أربيك، أنتِ ولد لئيم بالفعل.

- أمي ، ماما، لا أريد النوم اليوم مع خالد، فهو يهددني بالضرب مجدداً.

قال ذلك ونحن نقرب، من الطاولة المستديرة التي اختارها والدي لنجلس إليها جميعنا.

نظرت إينا أمي بعتب، وعصت على شفتها السفلى، بينما رحّت أنظر إلى طبق

الطعام الخاصّ بي بغيظ بالغ، وأنا أفكر فقط بطبيعة العقاب الذي سأنزله بوائل، حين نعود إلى كوخنا.

حينما رفعت نظري، كانت ليينا تمرّ بمحاذاة مقعدي، وهي تتحدّث مع صديقتها، وقد

حملت كلّ منهما طبقاً فارغاً واتجهتا نحو طاولات الطعام الحافلة بكل ما يخطر على البال، من ألوان الطعام والمشهيات.

خفق قلبي بسرعة. التفت وائل بسرعة إليّ وراح يضحك بضجيج بالغ. نظرت إلي

منى محرجةً، من ثم التفتت بغضب نحو وائل مشيرة إليه بسبابتها ليصمت. سكت ممتعضاً، بينما شعرتُ أنا بامتنانٍ حقيقي لها.

لم أعرف كيف بدأت بتناول طعامي، بسبب النيران في داخلي، فقد كنت أرغب

بالنظر إلى ليينا، لكنّي كنت أشعر بغضب وبتخوّف حقيقي من أخي العفريت.

(9)

خيل إليّ أن كل من في الصّالة صار ينظر إليّ، ويراقب حركاتي. اضطربت يدي، فأوقعتُ الشوكَةَ أكثرَ من مرة، وعينا وائل الخبيثتين تراقبانني باستمتاع حقيقي، إلى أن قال لي فجأة:

- هل تعرف خالد، لقد خطرت في بالي فكرة؟

لم ينتظر تعليقي أو إجابتي، لأنني كنت أشيح بوجهي عنه، محاولاً تقادي النظر إليه، لشدة غضبي منه.

فوجئتُ به، وهو ينطلقُ بخفة، وبانسراح باتجاه الطاولة التي جلست إليها لينا وصديقتها، ووجدته قد بدأ يتحدّث معهما ببساطة وبسرعة، مؤشراً بيديه الاثنتين نحوي أنا، ومنى أكثر من مرّة، فتمنيتُ لو انشقت الأرض، وابتلعتني.

في هذه الأثناء، كانت أمي قد غادرت مجلسها إلى جوارِي، وانشغلت وأبي باختيار ألوان الطعام التي يريدان تناولها بعناية ودقّة حفاظاً على صحتيهما.

بعد حوالي الخمس دقائق، أتجه وائل والصبيّتين نحونا، وهما تحملان طبقي طعامهما. قال وائل بسعادة واضحة:

- هيا بنا، تعالوا بسرعة قبل أن يجلس أحد هناك.

وراح يشير إلى طاولة صغيرة في إحدى الزوايا حولها أربعة مقاعد جلدية . نظرت إليّ منى باستفهام. ارتبكتُ بداية، لكن ابتسامه لينا المشجعة جعلتني أرغب بتنفيذ طلبه.

رضخ الجميع لاقتراحه، وسرنا وراءه، وكانت لينا تضحك برقةً أراحتني، وشجعتني على استعادة الإحساس بالهدوء، من جديد.

(10)

استقرّ كلّ منّا في مقعده حول الطاولة، فقال وائل بثقة وباعتداد :

- أخي خالد، أختي منى، هذه لنا، وهذه ماشا، وأنا وائل...

تصافحنا جميعاً، ونحن نضحك من الطريقة العفوية البسيطة التي جعلنا بها هذا الصبي نتجاوز خجلنا، وترددنا.

جلسنا حول الطاولة، وبدأنا نتناول الطعام ببطء، وقد راح كل منا يتحدث عن أصناف الطعام التي يحبها أكثر من سواها، وكان الحديث يتم بيننا بالفرنسية التي أتقنها كثيراً، وأحياناً بالإنجليزية مراعاة لأختي منى التي يريحها التحدّث بها، وتبيّن أنّها تجيدها أكثر من لنا ومّني.

أخبرتُ لنا أنها تسبح برشاقة مذهلة، فعلّقت بأن مدربتها واحدة من اللواتي كنّ يدربن الفتيات الفرنسيّات لخوض مباراة الألعاب الأولمبية المعروفة. هزرت رأسي بإعجاب حقيقيّ. حدثتني عن مدى أهمية مادة الرياضة التي تحتل مكانة مرموقة في بلادها، في قطاع التعليم تحديداً، وأنها أيّ لنا راقصة باليه ممتازة بالإضافة، إلى تفوقها في رياضتي السباحة، والغطس .

كان وائل يثرثر بلا توقف، وهو يحشو فمه بالمعجنات المتنوعة، أو بالحلوى، وماشا تضحك لكل كبيرة وصغيرة يقولها ! وكذلك كانت تفعل لنا على الرغم من انشغالها بالحديث معي، وقد علقت ببساطة، وهي ترنو إليه :

- لقد أحببت وائلا للغاية ، وهو قد ذكرها بمجرد أن رأته بأخيها ميشال الذي لا تراه دائماً، فوالدها ووالدتها في حالة انفصال، وهي تقيم مع والدتها، وأخوها يقيم مع أبيها وزوجته في مدينة مونبلييه.

كانت المفاجآت تتوالى على رأسي ، لكن أقواها وأشدّها تأثيراً كان إعجاب ليّنا بوائل، واستلطافها له، يا إلهي، أعجبها هذا الصبي الأخرق، ستحبها أمي للغاية لو علمت! ولأكن منصفاً فقد كنت أشعر بامتان حقيقي له، فلولاه لما تيسرت لي هذه الفرصة الذهبية التي أستمتع الآن بلحظاتها الشّهية.

(11)

فجأة سألت ليّنا سؤالاً بقي عالقا في رأسي، منذ حفل توزيع الميداليات:

- ليّنا لم كنت مضطربة، وأنت تتسلمين الميدالية على الرغم من فوزك، بالمرتبة الأولى، في تلك المباراة؟

حدّقت إلى وجهي برهة، من ثم قالت :

- أرجوك ليس الآن ، فيما بعد قد أحدثك عن هذا الأمر.

عاودني الإحساس بالفضول، لكن الانزعاج الظاهر على وجه ليّنا دفعني إلى احترام رغبتها.

اقترحت علينا منى الانتقال إلى الساحة العامة للمنتجع، فاستحسننا جميعاً الفكرة.

ولاحظت أنني للمرة الأولى، لم أنه كمية الطعام التي وضعتها في طبقي.

انطلقنا نحن الأربعة ، من بعد أن أخبرت والدتي بمقصدنا نحو الساحة العامة. تأملنا

مشاهد الطريق الرائعة: الجبال الهائلة الارتفاع، البحر المتسع بلا انتهاء، الأشجار الخضراء الكثيف، والطيور المحلّقة في أنحاء المكان.

فجأة مدت ليها يدها اليمنى، وصرخت بانفعال:

- لا بدّ أنّها تقع هناك، في تلك النّاحية بالذّات.

- ما هي ؟ ما الذي يقع هناك؟

انتبهت، من ثمّ عضت على شفتها، قائلة بانزعاج :

- المغارة، الكهف المسحور الذي جذبني لزيارة هذا المكان.

ضحكتُ بصوت عالٍ، وتعمدّت السخرية لأول مرة، في حديثي معها :

- هيّ ليّنا ، هل تعتقدين أنّ ثمة أمكنة مسحورة فعلاً، ظننتك أذكى من ذلك؟

- وأنا كذلك لم أكن أصدق مثل هذا الأمر، لكنه حقيقي صدقني.

- هذه ترّهات ، مجرد سخافات، إياك أنّ تصدقي مثل هذا الكلام، سحر وشعوذات و...

نظرت إليّ بما يشبه البلاهة، بينما استعدتُ أنا شيئاً من الثقة بنفسي.

(12)

كنّا قد وصلنا إلى الساحة العامة من بعد أنّ حاول أكثر من مصوّر مختصّ، إغراءنا

بالتقاط صوّر لنا أمام تلك المشاهد الطبيعية الخلابة.

أعجبت الفكرة ليّنا، بينما لم تستهوني أنا كثيراً، فقد بت في الآونة الأخيرة كثير

الانزعاج من حبّ الشباب المتفرق الذي يتوالى ظهوره على خديّ. انتبهت عندذاك كم أنّ

بشرة مرافقتي صافية وجميلة.

انطلقنا خلف منى ووائل وماشا الذين بدوا من بعيد، في غاية الانسجام والسعادة.

عند وصولنا إلى الساحة العامة، قال وائل:

- سأطلب المتلجات لنا جميعاً.
- انتظر حتى تحصل على المال.
- ضحكت ليना وماشأ، وعلقت تلك الأخيرة:
- ألا تعرف أن كل شيء هنا مجاني، وأن بإمكانك أن تطلب ما تشاء من دون أن تدفع فلساً واحداً.
- لكننا دفعنا سلفاً كل التكاليف، وبالتالي ليس كل شيء مجانياً.
- أجابتها منى بما يشبه التحدي.
- لكن ماشأ أصرت:
- وعلى الرغم من ذلك فالفكرة لطيفة ، وأنا أحب أن أعتقد أن كل شيء الآن مجاني.
- وأضافت:
- هل تعرفون أن عرضاً مسرحياً جميلاً سيبدأ عند الساعة العاشرة مساءً، وهو مجاني كذلك؟
- طبعاً سنشاهده إذا أحببت ليना.
- نظرت إليها مبتسماً، فوجدتها تبتسم وتهز رأسها بلطافة وخجل .
- يا إلهي ما أجملها!
- خاطبت نفسي مجدداً.
- هل ستشاركين غداً في مباراة السباحة عند الساعة الحادية عشرة صباحاً؟
- لا لديّ مخطط آخر للغد.
- ما هو؟ هل يمكن أن أعرف؟
- ليس الآن خالد، دعنا نستمع بهذه المتلجات التي تكاد تتساقط على ثيابي.
- وسارعت إلى لعق المتلجات الذائبة، وهي تنظر حولها بمتعة ولذة.

كانت الساعة قد بلغت العاشرة عندما جلسنا على مقاعد المسرح المفتوح. مسرح في الهواء الطلق، رُصّت مقاعده الحمراء من الأعلى إلى الأسفل، بشكل شبه أسطواني.

جلسنا على المقاعد الأمامية القريبة، ما أتاح لنا فرصة الرؤية الواضحة. اجتمع الجمهور غفيراً، فاكتشفت أنّ أناساً كثيراً يشاركوننا الإقامة في هذا المنتجع الريح الجميل.

لاحظت أنّ الجالسين ينتمون إلى مختلف الفئات العمرية من رجال ونساء ، شبان وشابات، فتيان وفتيات ويجمعهم إحساس الفرح والانتظار المهيمن على الوجوه. بدا الكل مترقباً لما سيحدث أمامه، في حين كانت الموسيقى تصدح بشكل صاخب، وبالونات ملوّنة كثيرة راحت تتطاير في الأرجاء. راح التصفيق يتعالى ضاجاً بين الآونة والأخرى، فاحترت في السبب، وما هي إلا لحظات حتى علا التصفيق إلى جوارى ، كانت لينا وماشا قد وقفنا بسرعة، وراحتا تصفغان بحماسة بالغة، وقد شاركهما عدد من الحاضرين.

كان الكلّ يصقّق وبصره مشدوداً إلى السماء إلى حيث البالونات المتعالية،

وسمعت لينا تقول لي مبتهجة:

- علم بلادي.

تنبّهت حينذاك للأشكال المرسومة على تلك الأعلام. كان كل واحد منها يحمل علم

دولة من الدول. وبينما كنت أتفحصها علا التصفيق حاراً مرة أخرى :

- هَيبي ... علم لبنان...

وبلا إرادة مني وجدنتني أصفق بشدة ، وأنا أشير إلى الأعلى بيدي مخاطباً لينا وماشا :

- وهذا علم بلادي لبنان

- هو علم جميل
- خاطبتني لينا مبتسمة.
- وعلم بلادك جميل أيضاً.
- من ثم توالى بعد ذلك، تطاير الأعلام، وموجات التصفيق ترافق ظهورها: علم بريطانيا، علم الأردن، علم السعودية، علم قطر، علم ألمانيا، علم الإمارات العربية، علم اليابان، علم إيطاليا ...
- وقف مقدم البرنامج في تلك الليلة، وراح يرسل التحايا بمختلف اللغات العالمية:
- بون سوار BONSOIR
- بونا سارا BONSERA
- غود إيفننغ.... GOOD EVENING
- والكل يصفق مبتهجاً سعيداً.
- بدأ العرض الراقص، و كان عبارة عن فيلم من أفلام الغرب الأميركي القديم، أفلام WESTERN كما علّق والدي الذي بدا سعيداً للغاية به.
- يجري العرض بطريقة استعراضية محبّبة، فالموسيقى تصدح وشبان وصبايا يتراقصون بمهارة عالية، وأضواء ساحرة متعددة الألوان تشعّ في الأنحاء، وحوارات سريعة لطيفة تهيمن على الأجواء.
- انتهى العرض، والجمهور يريد المزيد، لكنّ أعضاء الفرقة راحوا يتقدمون برشاقة لتحية الجمهور، بشكل جماعي.
- انطلق المقدم يحييهم فرداً فرداً ذاكراً أسماء البلدان التي ينتمون إليها، فبعضهم إيطاليّ الجنسية وبعضهم برازيلي، وبعضهم صينيّ، أما راقصة الفرقة الأولى، والتي صفق لها الجمهور طويلاً، فقد كانت من الجنسية الفرنسيّة، الأمر الذي أسعد لينا كثيراً، وجعلها تندفع في نوبة من التصفيق الطويل.

كنت أشاركها بهجتها لكني ، وبدون إرادة مني تمنيتُ لو أن أحد أعضاء الفرقة

كان لبنانياً .

علا صوت المقدم مجدداً:

- طبعاً ما كان لكل هذا الفنّ والإبداع أن يتجلّى لولا الفنان العظيم الذي قام بتصميم وتنفيذ كل هذه الأزياء الزاهية أطلب منكم سيداتي سادتي، أن تصفقوا معي للمصمم اللبناني المبدع جو خياط المقيم في ليتونيا منذ عشرين عاماً ونصف. راح السياح اللبنانيون يهزجون بصخب ، وكنت واحداً منهم.

(14)

وقفتُ مذهولاً تماماً... وكان ذهول لنا أخفّ درجة.

- أليس رائعاً؟
- أكثر من رائع، يا إلهي، كيف وصلتِ إلى اكتشافه لنا؟!!
- هو وحده ما أتى بي إلى هنا، فمنذ قرأت عنه، وأنا شديدة الرغبة في زيارته، ونتيجة هذا الشغف أقنعت والدتي باصطحابي إلى هذا المنتجع الجميل.
- ها، ما رأيك؟
- لم أكن بحاجة للردّ ، كانت دهشتي واضحة للعيان، فضّلت الصمت قليلا
عساني أستوعب المشهد المنبسط أمامي.
- لكنك لم تخبريني بعد ماذا قرأت عن هذا الكهف ؟

(15)

- اسمع الحكاية التي أثارت فضولي بشكل غريب. خلال العام الماضي قمنا أنا وأمي بزيارة جدّتي كالمعتاد؛ جدّتي تقطن في إحدى القرى الفرنسيّة النائية. أفراد أسرتها يعتمدون على

زراعة الحقل الصغير الذي يحيط بمنزلهم. يقوم خالي روبير بتربية عدد من الأبقار ليستفيد من لحومها وألبانها، وتعينه زوجته وأولاده على العناية بها.

كنت أستمتع بزيارة تلك المزرعة البسيطة، وبمراقبة أبقار خالي، ومتابعة أعمال جدتي الزراعية المتنوعة.

جدتي امرأة دائمة النشاط والحركة ، قليلة الكلام، كانت تجيبني أحيانا حين أستفسر عن قلة كلامها بأنها تكتفي بحديثها مع الأرض، ومع كل ما ترسله إليها من هدايا ومنح. كنت أراها أحيانا تكلم بعض رؤوس اليقطين الكبيرة، أو بعض حبات البطاطا الضخمة، وقد بدت علامات السعادة واضحة جلية على مَحياها، مؤكدة لي حين أستفسر "أن الطبيعة ألطف من البشر، وأنها صديقتها الحقيقية في الحياة".

المهم أنني أحسست ببعض الملل خلال زيارتي لهم، في العام الماضي، وكنت قد أنهيت قراءة القصة التي حملتها معي، فخطر لي وأنا أجلس وحيدة في البيت، أن أدخل إلى غرفة القبو في المنزل.

اندفعت إليها، وأشعلت النور، فانتشر ضوء باهت. رحْتُ أُجبل بصري في المكان : كان عددٌ من البراميل الخشبية الكبيرة مرصوفاً بعناية، فتحتُ أحدها فوجدت كمية من الفاصولياء، في الثاني وجدت طحيناً، في الثالث وجدت بعض اللحم المقدد، وقد رُصف طبقات،... إلخ.

انتقلت إلى إحدى الزوايا فوجدت ألعاباً خشبية قديمة ، ووسائد صغيرة بالية قدّرت أنها عائدة لأمي حين كانت طفلةً، ووجدت ، ويا للمفاجأة ، عدداً من القصص القصيرة تأكلت أوراقها الصفراء، واستحال لون حبرها. غمرتني سعادة فائقة، وأنا أقدر أنها الكتب التي كانت تقرأها أمي وخالي روبير وهما صغيران. أحسست فجأة بأني قبضت على جزء من طفولتهما الصافية بين يديّ.

لاحظت الصور البسيطة التي كانت تزيّن معظم تلك الكتب، استوقفني واحد منها،
ودفعني إلى فتحه وتحسّس أوراقه السميكة التي حملت عنوان "الكنز" .

(16)

مسحت الغبار الكثيف الذي غطّى غلافه، فاتضحت معالم زخرفته وتجليده الأنيق.
غادرت القبو، وأغلقت الباب الخشبي المتصدع الذي أحدث صريراً مزعجاً، من ثمّ عدت إلى
غرفة الجلوس، وبدأت بتصفّح الكتاب.

وجدته من أمتع القصص التي قرأتها، فقد اشتمل على مغامرات رائعة جميلة، وعلى
أخبار عن الجنيات والأشباح والأساطير التي كانت سائدة في كثير من مناطق العالم القديم،
وأوصافاً لعوالم مسحورة بعيدة تجري في أنحائها الغرائب والأحداث الخارقة. أعجبتني كثيراً، لكنّ
جزءاً منه علق في ذهني، وهو وصفه لكنز أميرة ماتت في مغارة تركية، وذكره الدقيق لموقعها
الجغرافي.

أردت التحريّ لاحقاً عن بعض المعلومات الواردة في ذاك الكتاب السحريّ الذي يذكر
مؤلفه أنه يصف أماكن واقعيّة لا خياليّة، فوجدت أن الكثير مما ذكره قد حدث وتمّ توثيقه، وقد
تأكّدت بعد الكثير من البحث والتدقيق أن المغارة موجودة فعلاً.

لذلك طالبت أمّي بهذه الرحلة، فوافقت على أن أحصل معدلاً عالياً في العام الدراسي ...
وهو ما حصل بالفعل، بينما أنت أخبرتني أن والدتك رجلك أكثر من مرة حتى ترافقها، فيا
للمفارقات العجيبة!

- لكنك لم تخبريني حتى الآن ما الذي جذبك إلى الكهف؟

- الكنز الذي تحدث عنه الكاتب.
- أي كنز لنا ؟ أنت كثيرة الأحلام أيتها الفتاة الجميلة.
- ليست أحلاماً إطلاقاً، فالكاتب يتحدث عن عدد من المجوهرات الثمينة جداً المغمورة بالمياه، منذ منتصف القرن السادس عشر، والتي غرقت مع أميرة تركية تاهت عن قصرها، واسمها صافيناز .

(17)

- ولكن ما شأنك أنت بالكنز ؟
- مدّت لنا يدها بحماسة، وأمسكت بيدي، مشيرةً ناحية اليمين إلى صخرة ملساء كبيرة تبدو وكأنها مقعد ممهّد لشخصين اثنين، قائلةً لي :
- ما رأيك بالجلوس على تلك الصخرة؟
- مهلاً لنا ...أنصتي قليلاً، هل تسمعين هذا الصوت الذي أسمعته؟
- نظرت إليها. بدت الصبية مضطربة شاحبة. أمسكت بيدي، وقالت :
- هو نفس الصوت الذي سمعته عندما أتيت في المرة السابقة إلى هنا.
- أتيت إلى هنا في مرة سابقة، مع من كنت؟
- أتيت بمفردي فقد أردت استكشاف المكان الذي تحدّثت عنه الأسطورة، ودفعني إلى السفر.

(18)

تحكي الأسطورة عن أميرة تاهت عن قصرها، فلاحقها عدد من اللصوص يريدون سرقة مجوهراتها، فبقيت تركض وتتخفى إلى أن وصلت إلى الكهف، حيث سمعت ضحكاً ناعماً يجتذبها، وأطربتها كركات خفيفة تنبعث من مياه الذهبية الشفافة.

ثبتت نظرها على بقعة مشعة في وسط المكان، تقع تحت فتحة في أعلى الكهف. فخيّل إليها أن صوتاً ما في تلك البقعة، يناديها بشغفٍ ليخفّف عنها وحشتها.

حدّقت كثيراً إلى المياه المذهّبة، فإذا بها ترى شاباً جميلاً ينظر إليها بعينيه الجميلتين ، وذراعه ممدودتان لاستقبالها. انزلقت في المياه برفق. ارتعدت قليلاً ، فالمياه باردة أكثر مما توقعت، لكنّ الدّفء بدا لها في البقعة المشعة. كان عليها أن تسبح بمفردها حتى تصل إليها. فكرت بالتراجع، والعودة للبحث عن قصر أبيها، لكنّ الدائرة المشعة كانت توشوشها، وتحبّب لقلبها المرتعد الوصول إلى دفئها.

(19)

راحت تنزلق في المياه الكثيفة أكثر فأكثر. شعرت بأنّ أثقالاً تشدّ بها إلى الأسفل، لكنها لم تعد قادرة على الرجوع، المياه الباردة تكاد تبتلعها، والضوء يشع ويستدعيها.

جاهدت لتتقدم، لكنّ المياه راحت تغمر كل جسدها، وتمنعه من الحراك، فتحاول أن تلو فوق المياه، ولسانها يطلق أصواتاً يائسةً مخنوقة. وهي في أوج صراعها ذاك، سمعت صراخاً عظيماً يتعالى في جوف الكهف الكبير، رفعت وجهها بسرعة إلى الأعلى، فرأت من الفتحة صقراً عظيماً يبسط ذراعيه الهائلتين، ويكاد يغطي الفتحة الكبيرة. أرادت أن تشير بيدها إليه، لكن المياه الثقيلة ابتلعتهما. تخبّطت وأنتت، لكنها عجزت عن التقاط أنفاسها، وغرقت في المياه التي لا يُعرف قرارها.

تقول الحكاية إنّ الصّقر قد هاله جمال الأميرة وشبابها، وأنه خاف عليها من ذاك المصير،
فصرخ صرخته العظيمة لكي ينبهها، لكن قدر الله قد نفذ.

هبط الصّقر من الفتحة المتسعة فارتطمت قدماه بالمياه الباردة، عاود التحليق باتجاه
المكان الذي غاصت الأميرة في جوفه. انتشل جثة الأميرة الغارقة ، وجرّها حتى الضفة الثانية
للكهف، وراح يتأمّل جمالها وصباها الفاتن، وكأنه بات يعقل ويفهم. قام الصّقر بحراستها،
وبحماية جثتها من الضباع والهوام، وصارت معبودته يطوّف حولها، هو وأولاده يقدّسونها،
ويحرسون جواهرها، بعد فنائها.

- هذه أسطورة يا عزيزتي، وليست حكاية .
- أياً تكن، أنا سأصل إلى الكنز بغضّ النظر عن التسمية، وعن الصّوت.

(20)

- أنت خائف الآن؟
- لا لست خائفاً، أنت من يرتجف.
- أنا أرتجف؟ طيّب، سأنزل إذاً إلى المياه، هل ستنزل معي؟
- هيّا أيتها الفتاة العنيدة.
- انزلقنا إلى المياه برفق، فوجدتها باردة كالثلج، أمّا في الوسط، فقد بدت مشعة، ودافئة
إلى حدّ بعيد.
- سنرى من منّا سيصل أولاً.
- يبدو لي أن الكهف مليء بالخفافيش، هل تسمعين لنا صوت أجنحتها؟
- أكره الخفافيش ، لم تأتي الآن على ذكرها؟
- لن أذكرها

اقتربنا من الدائرة المشعة فسألتها:

- هل تشعرين بالدفء الآن؟
- تماماً ، اختلفت حرارة المياه بشكل واضح ربما بسبب أشعة الشمس الهابطة من الفتحة.
- حين بتنا في وسط الدائرة، قالت لنا:
- الآن أتى دوري.

وبسرعة اختفت كلياً تحت المياه. انقضت دقائق على اختفائها، فراح قلبي يخفق بعنف. رحت أنظر برهبة إلى المياه التي تحيط بي ، ولأول مرة شعرت برعب حقيقي:

- لينا، لينا، لينننننن... ااااا

انبتق رأسها من المياه دفعةً واحدة كما دخل فيها. راحت تتنفس بعنف، وأنا أتنفس معها.

- أنت مجنونة أيتها الفتاة، خيل إلي أنك قد غرقت!؟

- أنت جبان يا خالد، لماذا تصرخ؟

- هيا أرجوك دعينا نغادر هذه المياه.

-حاضر، لكن دعنا ننظر قليلاً إلى ما اصطدته.

رفعت يدها، فإذا فيها عظمةً طويلة قد النقت حشائش زلقةً حولها، رمتها مرتعدة.

- ما أغباني!

حين بلغنا الضفة. تأملت وجه لينا، بدت منزعجة بشكل عميق.

(21)

خيم علينا الصمت خلال رحلة العودة. سألتها ونحن في الزورق :

- ما بك كأنك خسرت معركة؟
- أعتقد أنني قبضت على يد تلك الأميرة، أم على ساقها ؟
- أنت تتوهمين لي، لا بد أنك أمسكت بعظمة إحدى الزواحف، أو بساق صقر أو نسر مثلاً.
- لست خائفة أيها الأبله، لكني حزينة على تلك الصبية التي ماتت وحيدة في ذلك الكهف البعيد عن البشر.
- لن نعود إلى هنا مجدداً، أليس كذلك؟
- غداً سنأتي ومعنا العدة كاملةً

تركتها تقول ما بدا لها. ما إن وصلنا إلى المرفأ الصغير حتى لمحت وائلاً يغادر مياه الحوض ، ويتجه مباشرة نحونا، وهو مبتل تماماً. راح يتراكم باتجاهنا:

- هي خالد، هالو لي، أين كنتم كل هذا الوقت ؟ أمي منشغلة البال عليكما، ها أين كنتم، ماذا اشتريتما؟ هل أكلتما أشياء لذيذة، لم لم تأخذاني معكما؟
- التفتُ إلى وائل الذي كان يثرثر. لأول مرة، أحسست أنني أحبه كثيراً، أكثر مما كنت أتصور. اقتربت من شعره المبتل، قربت شفتي، وقبلته على رأسه بسرعة. وقف الصبي مذهولاً.
- سأل لي بصوت منخفض:

- لي، خالد مريض أليس كذلك، هل أخبرُ أمي؟

وصلت إلى البنغلو متعباً، وضحكات لي الصافية مازالت ترن في أذني.

(22)

سنعاود اليوم الذهاب إلى الكهف، رفضتُ البارحة بعناد مرافقة لينا، فكادت تغادر المنتجع بمفردها، لكني وعدتها أنّها إذا التزمت بعدم الذهاب، وبمشاركتي الألعاب في رياضة الرّكّمة فسأرافقها اليوم، وأبقى طوال الوقت معها.

عند الساعة صباحاً، ارتديت ملابسني، وانتعلت حذاءً رياضياً خفيفاً، وغادرت البنغلو بخفة.

سرت على الطريق الضيّق بين الأشجار الوارفة. أصوات العصافير وما يعرف عندنا في لبنان بصرصار العنب والتّين تعلو في المكان بشكل ساحر. موسيقى كثيفة غنية، أجمل من الموسيقى الغربية التي أواظب على سماعها ليل نهار.

اقتربت من المرفأ الصّغير، فوجدت لينا تبتسم لي من بعيد وتلوّح بيدها.

- لقد تأخرت ، أنا هنا منذ الساعة السابعة.
- كدتُ أغير رأيي في الواقع
- ليبتك بقيت في فراشك
- متهورة وأنانية.
- كيف تركك وائل تأتي بمفردك ؟
- ما زال غارقاً في أحلامه.
- لم أنم كثيراً، حلمت أحلاماً متقطعة ، ورأيت أنني داخل الكهف أبحث، ولا أجد شيئاً.
- لن تجدي صدقيني.

تظاهرت بالغضب والمركب الصغير قد بدأ يقترب من المرفأ. ابتعنا تذكرتين من الموظف ،
وصعدنا والآخرين إلى المركب. كنت سعيداً برفقتها.

(23)

حين وقفنا أمام فتحة الكهف عاودني الشعور بالتهيب لكنّ لينا قالت بابتسام:

- هيا.

قبضتُ على يدها، دافئة وطريئة وجريئة في آن .

دخلنا بهدوء محاولين عدم إحداث أي ضجة، لكنني تعثرت بحجرة صغيرة، تدرجت
على الأرض الصخرية المنحدرة، فأحدثت صوتاً تلاه صدى. تحركت بعض الخفافيش
في الزوايا، وراح بعضها ينتقل من ناحية إلى أخرى ، فانزعجت تانيا منها ، وأعلنت
مجدداً:

- أكره الخفافيش، أين كشافي ؟

أخرجت الكشاف الكبير من حقيبتي. أضأته فانتشر نورٌ كثيف. فرحت لينا:

- إنه رائع، أهو لك؟

- طبعاً ، لدي الكثير من هذه العدة في منزلي.

- إنه رائع حقاً.

انتشر الضوء انتشر في قسم كبير من الكهف. لم تكن أشعة الشمس قد وصلت إليه من فتحته العلوية. أمسكت لينا به بفرح حقيقي، وسلطت نوره على الجدران الرطبة وعلى الزوايا، فانكشمت الخفافيش في مواضعها:

- أجل هكذا أفضل، حافظي على أدبك وانضباطك أيتها المخلوقات القبيحة.
- لا تكوني متعسفة.
- ما هذا الصوت خالد؟
- لا أدري لا بد أنه صادر عنها. هيا بنا دعينا ننتهي بسرعة.
- هيا.

فتحت تانيا حقيبتها، وأخرجت منها لباساً أسود لماعاً ، وقناعاً ومنظاراً بحرياً، ارتدتها بسرعة وبمهارة ، من ثم أخرجت حبلاً طويلاً لفته حول وسطها:

- برافو لينا ، لم تنسي شيئاً
- أنت مستعد ؟
- أتم الاستعداد سيدتي.

تقدّمت من المياه بهدوء ، من ثم راحت تغوص فيها، أمسكت أنا بالحبل بيديّ الاثنتين وقد سلّطت ضوء الكشاف على منطقة الوسط . وحين صارت فيها، غطست في المياه دفعةً واحدة، ومعها كشافها.

تلوى قلبي بمجرد أن اختفى رأسها تحت المياه. فعدت أشعر بالوحشة. مرّت أربع دقائق ، بعدها اندفعت من المياه بقوة. رأيتها تتنفس بعمق، قبل أن تصرخ بصوت عال:

- لم أجد سوى الطحالب، سأعود النزول.

مضت مجدداً إلى الأسفل، لم أستطع تقدير العمق الذي تنسل إليه، لكنني قدرت أن المغارة عميقة.

فجأة اندفعت لينا بقوة خارج المياه، من ثم صرخت :

- لقد وجدتها، القصة حقيقية ، والأميرة حقيقية ، ثمة عظام ومجوهرات كذلك، انظر هذه القلادات الثمينة، وهذه الأساور، هل ترى خالد ؟

(24)

نظرت مبهوراً إليها، يا للهول!

- عليك أن تأخذها مني، ثمة الكثير في تلك الزواية، هل تسمعني؟

كان صدى صوتها يصطدم بالجدران بقوة.

- اهدئي لينا لقد رأيت، هل تسمعين هذا الصوت؟

هدأت، فسرى صوتٌ ناعماً على سطح المياه كأنه الأنين.

- هل سمعت؟

- قليلاً هيّا، لا وقت أمامنا اقترب أنت، وأنا سأقترب منك، خذ ما بيدي، حتى انتشل ما تبقى.

لم يكن بإمكانني سوى الاستجابة، أردت أن أغادر المكان. شعرت بقشعريرة ما

تسري في جسدي.

انزلت إلى المياه ، رحلت أسبح باتجاه لينا، وهي تسبح باتجاهي، بدت لي
المسافة طويلة طويلة على عكس ما هي في الواقع، وأخيراً التقينا، كان وجهها سعيداً
وبشوشاً ومنطقاً، كأنها حققت أقصى أمانيتها. قدمت لي المجوهرات باهتمام بالغ،
فأمسكتها بحرص كما أوصتني.

لم تمهلي حتى أتكلم عاودت السباحة إلى الوسط، فعدت أدرجي وأنا أمسك بما
حملتني إياه. وجدته ثقيلاً ، فاستغربت إذ لم تكن الكمية كبيرة كثيراً، لكن الحمل بدا
ثقيلاً.

عدت إلى الضفة أنتظر. بعد قليل، ظهرت لينا، فعاودت النزول إلى المياه.
ما كدنا نلتقي وهي ترفع يديها بما حملته مجدداً حتى زعق صوت عظيم فوق
رؤوسنا. كان صوتاً هداراً مخيفاً ارتجت له أنحاء المكان.

التقتنا كلانا إلى الأعلى فإذا صقرٌ عظيم يصفق بجناحيه، ويحدق بعينين
ناريتين إلينا.

ارتعدت من قمة رأسي حتى أخمص قدمي، وعاد تيار الدفء يسري مجدداً في
بدني، ونظرت إلى لينا ، بدت خائفة كثيراً، فأشرت إلى ما في يدها قائلاً:

- ارميها في المياه لينا، تخلصي منها .

هزّت رأسها رافضة بإصرار .

استمر الصوت العظيم يتعالى فقط رؤوسنا، وعدت أسمع أنيناً أشبه بالنعيب، فقلت لها
:

- سأعود إلى الضفة، هيا تقدمي أمامي.

تقدمنا كلينا ، وصلنا من دون كلام. وضعت لينا ما بيدها على الأرض، من ثم خلعت
القناع عن رأسها، وأزاحت المنظار عن عينيها.

ازداد الصوت اقتراباً، فنظرنا إلى الأعلى، كان الصقر قد بدأ بالهبوط، يا رب
السموات، يا له من مشهد رهيب! كلانا نرتجف.

حام الصقر فوق سطح المياه، وصل إلى وسطها، دار دورة كاملة حولها، ونحن
ننظر بذهول إليه، راح صوت الأنين يخفت تدريجاً، عاود فعل الدوران الدائري، خف
الأنين أكثر، فدار دورة ثالثة، اختفى معها الأنين تماماً، ولم نعد نسمع سوى حفيف
جناحيه العظيمين.

- يا إلهي، يمكن لعظامها أن تتن حتى الآن؟

سألتني لينا، ووجهها شاحب قد علته صفرة مخيفة.

نظر الصقر عميقاً إلى المياه، رفع رأسه واتجه بسرعة إلينا، وقف قبالتنا كأنه شخص
عاقل، لم نستطع النظر إلى وجهه، رحنا ننظر فقط إلى قائمته العظيمين، وإلى أظفاره
القاسية الكبيرة، وكدنا نسمع صوت ضربات قلبه الغاضبة. بدأ يقترب مني بحنق،
فابتعدت سريعاً ورحت أركض نحو الزاوية، وكانت لينا قد أصبحت خلفي.
وجدته يقترب من لينا، راح يقترب منها بهدوء، ورحت أنا أبحث عن شيء
أضربه به لأدفعه عنها، وقفت لينا أمامه بثبات. لم تتراجع خطوة، وكدت أقول لها
اهربي، لكني وجدته يقترب بأناة منها، رأيته يحني رأسه فجأة، ويقترب قليلاً من وجهها،
راح يحدق إليها بنعومة. أحنى رأسه أكثر، فراحت هي تتملى عينيه، بدا لها كأنه
يعرفها، أو كأنها تعرفه، أحنى الصقر رأسه للمرة الأخيرة.

اقترب من المجوهرات المبعثرة على الأرض، صار يجمعها، من ثم أمسكها
جميعاً بأظفاره، لم يترك منها قطعة، صفق بجناحيه، وزعق مجدداً محلقاً تحليفاً
خفيفاً.

حين صار فوق المنطقة الوسطى من المياه، تمهل قليلاً، ثم فتح أظفاره وإذا
بالمجوهرات تسقط مجدداً من بينها؛ وتعود إلى المياه.

- يا إلهي، لقد أعادها إلى نفس موضعها، من هناك بالذات أنا انتشلتها!!!

(25)

أصغى وائل وماشا ومنى بذهول إلى لينا، وهي تتحدث واصفةً مغامرتنا. كنت ما أزال غير مصدق أنّ الصقر لم يأكلنا، ولم أصدق أكثر أنه انحنى مرّات أمام لينا.

سألتها خلال رحلة عودتنا:

- ماذا حدث لينا حتى فعل ذلك المخلوق كلّ ما فعل ؟
- لا أدري خالد، لكن صدقني، في لحظة من اللحظات، شعرت أنه إنسان عاقل، وأنا أنظر إلى عينيه ، لم أحسّ لحظة أنه طائر لا يفهم ما يفعل.
- أصدقك لأنني رأيتَه فقط ، تعتقدان أنه يفهم ما يفعل، أم أنه فعله بحكم الغريزة فقط؟
- لا إجابة لديّ، لكنني بتّ أوّمن أنه مخلوق وفيّ ، بل ربما يكون أكثر وفاء من بعض البشر.

- هل كان يقوم بتقديسٍ ما، وهو يدور حول المياه؟
- أنت تلقي يا خالد أسئلة لا إجابات لها عندي.
- كدنا نموت هناك.
- لو فعلنا لكنك وجدت صقراً وفيّاً يحمي عظامك
- لا يا حبيبتي كان سيحمي عظامك أنت، لأنه يبدو مفتوناً بالفتيات فقط وبالشقراوات منهن.

حلّ الليل، ولينا ما زالت تتحدّث، والكلّ يصغي بشغف إليها. استمتعت أنا بإعادتها لكلّ المغامرة التي مررنا بها ، وشعرت بالامتنان لها، فلولاها لما كنت قد تجرأت على خوض تجربة تعلّمت منها قيمة الحب والوفاء ، فحتى الحيوان حين يحبّ يصبح وفيّاً يثير في ذواتنا، إحساس الإعجاب والامتنان، فكيف بالإنسان؟

ختمت لينا حديثها باقتراحها أن نخوض اليوم مباراة جماعية في السباحة، مباراة حماسية تكون لنا نكرى من رحلتنا الجميلة.

نظرتُ إليها بإعجاب، وقلت مناكفًا:

- كيف تجدينها جميلة، وقد خسرت الكنز الذي عملت عاماً دراسياً كاملاً من أجل الحصول عليه؟
- نظرت إلى وجوهنا جميعاً، من ثمّ قالت بمحبّة حقيقية:
- خسرت كنزاً من المعادن ، وربحت كنزاً من البشر .
فاندفع وائل وقبّلها بحماسة:
- الآن تأكّدت أنك أنكى من أخي هذا، وسأبقى على تواصل دائم معك، عبر الفيس بوك والأنستا، هل لديك صفحة أو حساباً؟
- طبعاً، وأنا ناشطة جداً، لكن انتظر فأنا قد أزورك في يوم من الأيام، في لبنان ، ها ما رأيك وائل ؟
- قالت ذلك، وغمزتني بعينيها الجميلتين، فأجبتها ضاحكاً:
- أكبييد، وربما أقول، ربّما نزورك نحن في باريس، في العام القادم.
- ربّمممما
- اندفعنا جميعاً في قفزة جماعية نحو المياه، وأصوات ضحكاتنا قد ملأت الأركان، وتعالّت في الأجواء مزاحمةً أصوات الجنادب، وأضواء النجوم وكلّ العصافير .

تمّت